أثـــر صقليـــة

في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأوربيين

د . محمد كامل عيّاد

مجمع اللغة العربية ـ دمشق

يختلف المؤرخون الاوروبيون في نظرتهم الى الحضارة العربيـة ـ الاسلامية وتقدير قيمتها ، وحاول بعضهم الحط من شأنها وانكار كل أصالة لها ، فزعم باحث مشهور مثل ـ رينان ـ ان الفلسفة العربية ليست سوى فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية ، في حين أن علماء آخرين يؤكدون مقدرة العرب المسلمين على اقتباس وتمثل ما يحتاجون اليه من عناصر غريبة ثم ابداع آثار جديدة منهـا . وهم ينوهون بما أضافه العرب المسلمون من اختراعات واكتشافات الى علوم القدماء وفنونهم ، كما يلحون على ابراز الصفات الذاتية والملامح الخاصة بالحضارة العربية ـ الاسلامية حتى أصبح من السهل جدا تمييز الآثار العربية ـ الاسلامية من غيرها في كل انحاء العالم .

على أن هؤلاء المؤرخين والعلماء الذين تتباين آراؤهم حول مكانة الحضـارة العربية ـ الاسلامية يجمعون من جهة اخرى على الاعتراف بتأثيرها في نشأة الحضارة الاوروبية الحديثة . فليس بينهم من ينكر ان الاوروبيين الذين عاشوا حقبة طويلة من الزمن في حالة مزرية من التأخر والجهل والهمجية بالقرون الوسطى لم يستيقظوا وينهضوا ويسيروا في طريق التطور والتقدم الا بعد ان اصطدموا واحتكوا بالعرب المسلمين واقتبسوا عنهم مظاهر الحضارة ونقلوا عنهم تراث القدماء وأخذوا عنهم كثيرا مما توصلوا اليه من منجزات في مختلف العلوم والفنون .

* * *

حدث الاصطدام والاحتكاك والالتقاء بين العالم العربي ـ الاسلامي والعالـم الاوروبي على ثلاثة محاور :

---

* اعـد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريـخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م.

١ ـ في الاندلس ، حيث استمرت الحروب منذ فتحهـا في القرن الثامن الميلادي حتى خروج المسلمين منها في القرن الخامس عشر ، سواء في بعض مقاطعات اسبانيا أو في جنوبي فرنسا وتخلل ذلك فترات سلام واختلاط وتمازج بين السكان فازدهرت الحضارة الاسلامية بالاندلس وتأسست الجامعات العربية واخذ كثير من الاوروبيين يحجون الى طليطلة للدراسة وترجمة الكتب العربية .

٢ ـ في صقلية التي فتحها المسلمـون في القرن التاسع الميلادي والتي سادت فيها اللغة العربية والحضارة الاسلامية عدة قرون .

٣ ـ في البلاد المقدسة خلال الحروب الصليبية منذ أواخر القرن الحادي عشر اذ احتل الغزاة الصليبيون أجزاء من فلسطين وسورية وعاشوا مع سكان البلاد ، على الرغم من استمرار القتال والتعصب والكراهية ، في فترات من الهدنة فعقدوا المعاهدات وتبادلوا الاسرى والبضائع التجارية واقتبسوا الكثير من مظاهر الحضارة.



ان البحث هنا سيقتصر على (صقلية) والدور الهام الذي قامت به في نقل الحضارة العربية ـ الاسلامية الى الاوروبيين .

تقع جزيرة صقلية في وسط البحر المتوسط بين الحوض الشرقي منه والحوض الغربي . وبسبب هذا الموقع المركزي كانت على اتصال بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب وتعرضت الى تأثيرات مختلفة . وقد استقر فيها بالتناوب : القرطاجيون واليونان ثم الرومان والبيزنطيون والعرب والنورمان الذين ظلت اثارهم العمرانية وروائعهم الفنية قائمة فيها جنبا الى جنب . وبسبب موقعها الممتاز أيضا كانت هدفا لمطامع الدول المجاورة : فاحتدم التنافس والنزاع عليها بين القرطاجيين واليونانيين منذ القرن الثامن حتى الخامس قبل الميلاد ثم بين قرطاجة وروما في القرن الثالث قبل الميلاد . وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية حاول اللومبارديون الاستيلاء عليها ولكنها ظلت تحت حكم البيزنطيين الى ان فتحها العرب في القرن التاسع الميلادي . ويذكر المؤرخون أنها قد تعرضت الى غارات العرب المسلمين وغزواتهم مرات عديدة منذ انتصارهم على الاسطول البيزنطي في معركة (ذات الصواري) سنة ٣٤ هجرية /٦٥٥ ميلادية ، فغزاها عبد الله بن قيس سنة (٤٦) في زمن معاوية بن أبي سفيان وأصاب فيها غنائم ثمينة ، ثم تكررت الغزوات . الا ان المسلمين لم يخططوا جديا لفتحها الا بعد قيام دولة الاغالبة في القيروان سنة ١٨٥ هجرية / ٨٠١ م . وكان

للاغالبة أسطول قوي جعلهم يطمحون الى السيطرة على البحر الابيض المتوسط سيطرة تامة فاحتلوا جزيرة (كورسيكا) في سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م ، وجزيرة (ساردينيا) في سنة ١٩٤هـ / ٨١٠م ، ثم جزيرة (كريت) سنة ٢٠٨هـ \ ٨٢٣م، وبعد مدة جزيرة (مالطة) في سنة ٢٥٥هـ \ ٨٦٩م .

أما (صقلية) فقد سنحت الفرصة للاستيلاء عليها سنة ٢١٢هـ \ ٨٢٧م اذ يروي المؤرخون ان أحد الثوار الصقليين ضد الحكم البيزنطي جاء من مدينة (سرقسة) يطلب النجدة من (زيادة الله بن الاغلب) في القيروان الذي انتهز هذه المناسبة فأرسل اسطولا يحمل (٧٠٠) فارس وعشرة آلاف مقاتل تحت قيادة القاضي والوزير (أسد بن الفرات) الذي كان يبلغ السبعين من العمر . وقد مات (ابن الفرات) وكثير من جنوده بالطاعون وتوقف الفتح فترة . ولكن بعد وصول نجدة من الاندلس واخرى من القيروان استطاع المسلمون الاستيلاء على مدينة (بلرم) سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م . ، واتخذوها مركزا لادارة الجزيرة وقاعدة لمتابعة فتح سائر المدن . . ولم يكن من السهل التغلب على المدن الحصينة مثل (سينا) و (سرقة) و (طبرمين) و (جرجنت) و (قصريانه) التي استغرق فتحها أكثر من خمسين سنة .



دام الحكم العربي – الاسلامي في (صقلية) مدة قرنين ونصف القرن . وكانت السلطة في أيدي ولاة يرسلهم أمراء بني الاغلب من القيروان . وبعد قيام الخلافة الفاطمية في افريقية كان الولاة يرسلون من (المهدية) أولا ، ثم من مصر بعد انتقال العاصمة اليها .

وقد كثرت الثورات والاختلافات بين العناصر والطوائف العديدة فاضطربت العلاقات بين عاصمة الدولة وبين الجزيرة وأخذ الولاة يميلون الى الانفصال حتى جاء(الحسن بن علي بن الحسين الكلبي)الذي عينه الخليفة الفاطمي المنصور واليا على (صقلية) سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م. ، فاستطاع أن يؤسس فيها امارة شبه مستقلة تعاقب في الحكم عليها أولاده واحفاده مدة خمسين عاما . وكان هؤلاء الامراء الكلبيون يعيشون في قصور فخمة ويجمعون في بلاطهم الشعراء والعلماء فازدهرت العاصمة (بلرم) بالاخص في عهد (أبي الفتوح يوسف بن عبد الله الكلبي) ٣٧٩ – ٣٨٩ هـ / ٩٨٩ – ٩٩٨ م .

انا عندما نطالع تاريخ (صقلية) لدى المؤرخين العرب مثل (ابن الاثير)

و (ابن عذارى) و (ابن خلدون) و (النويري) لا نجد ذكرا الا للفتن والثورات والحروب الدامية ، المتواصلة ، ولابد أن نتعجب ، كما تعجب المؤرخ الانكليزي (سكوت) في كتابه (تاريخ الامبراطورية العربية في أوروبا) ونتساءل معه : « كيف تمكن المسلمون في صقلية ، مع كل ذلك ، من أن يضربوا بسهم في تطور الحضارة وان يتقدموا في الحياة العمرانية ـ المدنية ، وأن يعملوا في الزراعة أو الصناعة وان يشاركوا في العلوم والفنــون ؟

وفي الواقع لم تكن الحرب كل شيء في حياة (صقلية) ، بل كان هناك وراء الاحداث التي يرويها أولئك المؤرخون مسرح آخر ترتسم فيه معالم واضحة للمسجد والمدرسة والسوق والبيت والمزرعة والمصنع . فاذا رجعنا الى الرحالة (ابن حوقل) الذي زار (صقلية) حوالي سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م ، في عهد الكلبيين ، نراه يقول انه وجد في مدينة (بلرم) وحدها (٢٠٠) مسجد و(٣٠٠) معلم مدرسة، ولاحظ أن هؤلاء المعلمين يلاقون من السكان كل احترام وتقدير . ثم أضاف قائلا : « ذلك على الرغم مما اشتهر به معلمو الصبيان . من غفلة وخفة ونقصان عقل . »

لقد كانت (صقلية) العربية ـ الاسلامية تزخر بآثار العمران وكان فيها آلاف الشعراء وكثير من العلماء والاطباء الكبار الذين ذاع صيتهم في الاندلس أيضا . كذلك كانت هناك جامعة في (بلرم) .. على أن حضارة (صقلية) العربية ـ الاسلامية لم تبرز معالمها ويتجلى مستواها الرفيع الا بعد استيلاء (النورمان) على الجزيرة ..



ان المقاتلين (النورمان) الذين اجتاحوا (صقلية) في سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م بقيادة الامير (روجر بن تانكرد) ، وظلوا يحاربون مدة ٣٠ عاما قبل أن يتمكنوا من اخضاع الجزيرة لسيطرتهم ، قد خربوا كثيرا من المدن والحصون والقصور وعملوا على محو الآثار الاسلامية .

ولكن سرعان ما اضطر هؤلاء الغزاة الهمج الى الاستعانة بالعرب المسلمين في حكم الجزيرة . فقد حافظ الامير (روجر الاول) على نظام الادارة والدواوين القائمة وأبقى الموظفين المسلمين ، حتى الكبار منهم . في مناصبهم ، كذلك اختــار أكثر جنوده من المسلمين واتبع أساليب التدريب السائدة من قبل . وعلى الرغم من أنه لم يكن مثقفا فقد أحاط نفسه بجمع من العلماء والمنجمين والاطباء العرب المسلمين . وأصبح بلاطه في (بلرم) لا يختلف عن أمثاله في الشرق .

ويتجلى لنا المظهر العربي ـ الاسلامي بصورة أقوى في بلاط ابنه وخلفه الملك (روجر الثاني) (١١٠١ ـ ١١٥٤) الذي امتاز بالشجاعة الطموح والدهاء والاندفاع الى العمل . وقد تغلب على خصومه والمتربصين به واستطاع أن يوسع بلاده ويرغم البابا على تتويجه ملكا على (الصقليتين) (أي جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية) ويلقبه الادريسي بالملك المعظم المعتز بالله ، المقتدر بقدرته . .

استخدم (روجر الثاني) أكبر عدد ممكن من العرب المسلمين في تنظيم الجيش وادارة الدواوين ، في حين استعان باليونانيين في تجهيز الاسطول والعناية به ، واقتبس الاصطلاحات العربية فكان هناك على رأس الاسطول والجيش (أمير الامراء) وكان هناك القاضي والقائد ، وكانت هناك مختلف الدواوين مثل ديوان المظالم وديوان الطراز وديوان التحقق المعمور . وكانت تستخدم في السجلات وفي المراسيم والاوامر الملكية اللغات الثلاث:العربية واليونانية واللاتينية.ان أقدم وثيقة على الورق موجودة في اوروبا هي أمر صادر عن والدة (روجر الثاني) الوصية عليه في سنة ١١٠٩ وقد كتبت باللغتين العربية واليونانية .

كان (روجر الثاني) نفسه يرتدي الثياب العربية ويجاهر بحبه للاخلاق الاسلامية وقد حشد في بلاطه عددا كبيرا من العلماء والمستشارين العرب المسلمين وفي مقدمتهم العلامة (الشريف الادريسي) الذي عهد اليه الملك بتأليف في الجغرافيا وجمع حوله مساعدين قاموا بتحديد مواقع المدن في صقلية وقياس المسافات بينها . وقد رسم الادريسي خارطة شاملة للعالم المعمور الذي قسمه الى سبعة أقاليم وجعل لكل اقليم عشر خرائط . ومجموعة الخرائط السبعين كان نشرها الباحث الالماني (كونراد ميللر) في شتوتغاردت سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٣١ ، ثم اعيد نشرها منقحة من قبل المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٥١ .

ومع الخارطة قدم (الادريسي) الى (روجر الثاني) كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) المشهور أيضا باسم (كتاب روجر) . وقد نشر مختصر للكتاب مع ترجمة لاتينية في روما سنة ١٥١٢ ، فظل الاوروبيون يستقون منه معلوماتهم الجغرافية مدة طويلة ثم ظهرت ترجمة كاملة بالفرنسية (سنة ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠) . ومنذ سنة ١٩٧٠ بدأت لجنة من علماء ايطاليا مع خبراء عالميين باصدار طبعة منقحة ، اقتصادية للكتاب . ولا عجب من هذا الاهتمام فان كتاب (الادريسي) يعد فتحا عظيما في تطور العلوم وفي الربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية وكان له تأثير بالغ في تقدم المعرفة الجغرافية على الرغم مما يلاحظ عليه من نقص في النواحي الفيزيائية والرياضية بسبب عدم استفادته من بحوث (البيروني) في هذا المجال . .

وقد أفاض (الادريسي) بمقدمة كتابه في مدح (روجر الثاني) ووصف مزاياه والاشادة بكرم اخلاقه وبيان رجاحة عقله وسداد رأيه وبقدرته على تصريف الامور ومعرفته بالعلوم . يقول العلامة (سارتن) ان (روجر الثاني) كان أكثر حكام عصره تنورا وقد استطاع انيجعلمن (صقلية) في مدة قصيرة ارقى واغنى دولة في اوروبا ، تمتاز بحضارتها وحسن نظامها على جميع البلاد الاوروبية في ذلك العصر . والى (روجر الثاني) يعود الفضل في العناية بالزراعة والصناعة والتجارة التي كانت تقدمت في عهد العرب المسلمين فاقتبس اساليبهم واعتنى خاصة بالمزروعات التي ادخلها العرب الى الجزيرة مثل قصب السكر والكتان والزيتون وشجع تربية دود القز وصناعة الحرير ، كما ارغم الامراء الاقطاعيين على الاقامة في بلاطه لتسهيل مراقبتهم ومنع تعدياتهم على الفلاحين ..

ان (روجر الثاني) الذي عاش في بيئة تسودها الحضارة العربية الاسلامية كان متسامحا في الامور الدينية والثقافية ويطلق الحرية لمختلف الاجناس والطوائف في مملكته . ولا بد هنا من الاشارة الى أن (روجر الثاني) الذي ارسل اسطوله لقصف القسطنطينية لم يشترك في الحرب الصليبية الثانية سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م . وكيف كان يمكنه الاقدامعلى ذلك واكثرية رعاياه وجنوده من المسلمين ؟ وعدا ذلك فقد كان مخاصما لامراء الفرنج في مملكة القدس اللاتينية وكان يرفض تموين الصليبيين في البلاد المقدسة منذ الفضيحة التي نجمت عن زواج والدته ثم طلاقها من ملك القدس بغدوين الاول .

ظل الطابع العربي ـ الاسلامي سائدا في (صقلية) بعد عهد (روجر الثاني) ايضا ، فكان ابنه (ويليام الاول) (يرد أسمه في الكتب العربية غليالم) ، الذي خلفه من سنة ١١٥٤ ـ ١١٦٦ يتكلم العربية ، وقد الف له العلامة (الادريسي) ، الذي بقي مستشارا في البلاط ، عدة مصنفات جغرافية وكتابا في (الادوية المفردة) يسرد فيه اسماء الادوية باثنتي عشرة لغة . وكان (ويليام) الاول يشجع الترجمة الى اللاتينية سواء من اللغة العربية أو الاصول اليونانية . وفي عهده (أي في سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) تم نقل كتاب (المجسطي) الى اللاتينية من اللغة اليونانية مباشرة، واشترك في الترجمة عالم صقلي اسمه (اوجين البلرمي) المشهور باسم (الامير) الذي كان يتكلم اليونانية ويعرف العربية واللاتينية . وقد ترجم الى اللاتينية عن العربية كتاب (البصريات ـ أوبتيكا) المنسوب الى بطليموس والذي ضاع اصله اليوناني ، كما انه ساعد في ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من العربية الى اليونانية .

أما خلفه (ويليام) الثاني (١١٦٦ ـ ١١٨٩) م فيذكر عنه الرحالة (ابن جبير) ،

الذي زار صقلية في عهده (سنة ١١٨٤) ، انه يقرأ ويكتب بالعربية ويحيط نفسه بحرس من المسلمين ثم يضيف قائلا : « شأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في أحواله وفي المهم من أشغاله حتى أن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين » . كذلك هو « كثير الاعتناء بالاطباء والمنجمين ، شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه ». ويروي (ابن جبير) انه شاهد في (بلرم) النساء المسيحيات يرتدين ثياب المسلمات ، مما يدل على رسوخ التقاليد والعادات الاسلامية في الجزيرة . كذلك يتحدث (ابن جبير) عن استقلال المسلمين في ادارة شؤونهم وعن وجود موظفين مختصين بأحوالهم من مشايخ وحكام وقضاة وعمال وقادة ..

مات (ويليام) الثاني دون ذرية فانتخب الامراء احد احفاد (روجر الثاني) غير الشرعيين ، اسمه (تانكرد) ملكا في سنة ١١٨٩ ، ولم يستطع التغلب على الفوضى التي سادت البلاد ومهدت السبيل لاستيلاء الامبراطور الالماني (هنري السادس) على صقلية في سنة ١١٩٤ .



بذلك انتهى حكم (النورمان) في صقيلة . ولكن التراث العربي ـ الاسلامي ، الذي ظل حيا ومؤثرا في حياة السكان طول عهدهم مدة مائة وثلاث سنوات ، لم يتوقف عن الاشعاع والتفاعل بعد انتقال السيطرة الى أسرة (هوهنشتاوفن) الجرمانية . واذا كان الغزو الالماني قد أحدث كثيرا من الخراب واذا كان الحكم الاقطاعي الذي فرضه هؤلاء الالمان وسياسة الاضطهاد والاستعباد التي اتبعوها مما اضطر العرب المسلمين الى الهجرة خارج صقلية او الى الالتجاء في الجبال الوعرة ، فانه على الرغم من كل ذلك بقيت اثار الحضارة العربية ـ الاسلامية ظاهرة في الجزيرة وظل المسلمون يؤلفون جزءا كبيرا من سكانها الذين استمر معظمهم يتكلم بالعربية الى جانب اليونانية واللاتينية .

من هذه البيئة ، التي كانت تلتقي فيها وتختلط مختلف الحضارات واللغات والاجناس والطوائف ، برز الامبراطور (فريدريك الثاني) الذي تأثر الى ابعد حد بالحضارة العربية ـ الاسلامية والذي كان له أعظم الاثر في نقل الفلسفة والعلوم العربية ـ الاسلامية الى الاوروبيين .

ان (فريدريك الثاني) ابن الامبراطور (هنري السادس) من زوجته الاميرة (كونستانسا) بنت (روجر الثاني) ملك صقلية النورماني ووريثة عرشه الشرعية ولد في سنة ١١٩٤ م . وقدمات والده وهو في الثالثة من العمر ثم ماتت والدته سنة ١١٩٨ وهو في الرابعة منعمره فورث عنها عرش (صقلية) ونشأ يتيما تحت وصاية البابا (اينوسنت الثالث) الذي أهمل تربيته وتعليمه وحاول أن يحول دون وصوله الى عرش ابيه في الامبراطورية . ولكن الحظ ساعده فانتخب امبراطورا وتم تتويجه سنة ١٢١٥ بعد ان اقسم للبابا بأن يقود حملة صليبية لاستعادة القدس . الا انه أخذ يماطل ويؤجل موعد الحملة من سنة الى اخرى بأعذار صحيحة أحيانا وكاذبة في الغالب ، واستمر على ذلك في عهد البابا (اينوسنت الثالث) كله ثم في عهد خلفه (هونوريوس الثالث) الذي مات سنة ١٢٢٧ ، فتولى مكانه البابا (غريغوريوس التاسع) المعروف بصرامته والذي نفذ صبره فأعلن حرمان (فريدريك الثاني) من الغفران .

على الرغم من هذا الحرمان ومن مقاطعة رجال الدين ، سافر (فريدريك الثاني) الى فلسطين في خريف سنة ١٢٢٨ وتوج نفسه في كنيسة القيامة ملكا على القدس بعد ان دخلها سلما بالاتفاق مع الملك الكامل الايوبي . وقد تبين من مجرى الحوادث ان (فريدريك الثاني) كان على اتصال مع الملك الكامل منذ مدة سواء بالمراسلات او بتبادل الوفود والهدايا . وكانيقوم بالمفاوضات وزير الملك الامير (فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ) . ويبدو ان الملك الكامل خاف من انتماء أخيه الملك المعظم الى السلطان جلال الدين خوارزمشاه فاراد ان يستعين بالامبراطور فاستدعاه الى عكا ثم رضي بان يسلمه القدس وبيت لحم والناصرة على شرط ان تبقى اسوار القدس خرابا وان لايتعرض الفرنج الى قبة الصخرة ولا الى المسجد الاقصى وان يكون الحكم في الرساتيق لوالي المسلمين .

كانت النقمة شديدة وعامة في البلاد الاسلامية على الملك الكامل لتساهله تجاه الصليبيين . الا ان معاهدة الصلح بين الطرفين ، التي تعتبر انجازا تاريخيا عظيما ومفخرة للامبراطور وشاهدا على مهارته السياسية قد اثارت من جهة اخرى استياء العالم المسيحي وسخط البابا الذي كان يريد محاربة المسلمين لا مفاوضتهم .

لم يبق الامبراطور سوى ثلاثة أيام في القدس . ثم أسرع الى عكا للابحار منها الى ايطاليا مودعا بشتائم الصليبيين الذين قذفوه بالاوساخ وهو في الطريق الى الميناء .



ان وصول الامبراطور (فريدريك الثاني) الى فلسطين ودخوله القدس سلما وزيارته لقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، كل ذلك قد اثار اهتماما كبيرا لدى المؤرخين المسلمين المعاصرين . فقد شاع عن (فريدريك الثاني) انه كان مصافيا للمسلمين وخصما للبابا ، فكان طبيعيا ان يسرع المؤرخون البحاثة الى استقصاء اخباره وجمع اكثر ما يمكن من المعلومات عنه . وهكذا اخذ بعضهم يسأل القوام على ابواب الصخرة عن هيئته ومظهره ، واتصل اخرون بالقاضي شمس الدين عبد الكريم ، قاضي نابلس الذي نزل الامبراطور في داره والذي عهد اليه بمرافقته مدة اقامته في القدس ، للاستفسار منه عن حركاته واقواله . ومن طريف ما نقله (سبط بن الجوزي) في كتابه (مرآة الزمان) عن أحد القوام وصفه له بقوله : « كان الامبراطور اشقر، أمعط، في عينيه ضعف ، لو كان عبدا ما يساوي مائتي درهم » . ثم روى (ابن الجوزي) ان الامبراطور سأل القوام : « هذه الشباك التي على ابواب الصخرة من اجل ايش ؟ » قالوا : « لئلا يدخل العصافير . » فقال : « قد اتى الله اليكم بالخنازير » .

وذكروا انه لما دخل وقت الظهر واذن المؤذنون قام جميع من كان مع الامبراطور من الفراشين والغلمان ومعلمه (وهو من صقلية كان قرأ عليه المنطق) فصلوا ، اذ كانوا من المسلمين .

وقال بعض الذين اتصلوا بالامبراطور : « الظاهر من كلامه أنه كان دهريا وانما يتلاعب بالنصرانية » .

ويشير المؤرخون العرب الى ان (فريدريك الثاني) كان عالما متبحرا في الهندسة والحساب والحكمة .

وفي الحقيقة قضى (فريدريك الثاني) طفولته في (بلرم) دون ان يتلقى تعليما منتظما ، انما كان مسموحا له بالتجوال في شوارع العاصمة واسواقها وبان ينتقي رفاقه كما يشاء وان يختلط بالناس ويعاشر من يروق له . وقد ساعده فكره الجوال المتعطش الى المعرفة ومواهبه الفطرية على ان يستفيد من كل ما شاهد او سمع وان يكتسب خبرة شخصية واسعة وان يتعرف الى مختلف الشعوب والطوائف ويطلع على عقائدها وتقاليدها وعاداتها وان يتعود على التسامح كما تعلم عدة لغات كانت منتشرة في صقلية مثل اللغة العربية واليونانية واللاتينيه والعبرية . فكان يكاتب صهره امبراطور بيزانس باليونانية وينشيء رسائله الى البابا أو ملوك أوروبا باللاتينية، وينظم قصائده بالطليانية ويراسل الملك الكامل وحاشيته بالعربية ، وقد نقل (التاريخ

المنصوري) نص رسالتين بلغة عربية مزخرفة بعث بها بعد عودته مــن القدس الى الوزير ابن شيخ الشيوخ يتحدث فيهما عن حربه ضد البابا (غريغوريوس التاسع) .

يبدو أن (فريدرك الثاني) قد قرأ كثيرا من الكتب ، وبالاخص كتب التاريخ : وكان يطالع بعض الكتب العربية في مختلف العلوم والفلسفة وكان مغرما بالرياضيات والطبيعيات والميكانيك ويهتم بالتنجيم والسحر ويؤمن ببعض الخرافات الشائعة في زمانه. وبسبب غزارة معلوماته وتنوع مهاراته أطلق عليه معاصروه لقب (اعجوبة العالم وصانع المعجزات) . وليس ادل على مدى معرفته بالعلوم الاسلامية والفلسفية من المسائل المشكلة التي ارسلها الى الملك الكامل فعرضت على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي (المعروف بتعاسيف) للاجابة عليها .

ولعل هذه الاسئلة لاتختلف عن تلك التي ارسلها أيضا الى ملك الموحدين (عبد الواحد الرشيد) فعرضها هذا على الفيلسوف الاندلسي المتصوف (ابن السبعين) الذي كتب رسالته المعروفة باسم (الاجوبة عن الاسئلة الصقلية) . ويظهر من كلام (ابن سبعين) ان أسئلة الامبراطور كانت تدور حول تعاليم (ارسطو) و (ابن رشد) في أزلية المادة وطبيعة النفس وخلود الروح وما شابه ذلك من قضايا فلسفية ودينية بالاضافة الى مسائل علمية مثل تصنيف النباتات وكيفية نمو اجناسها المختلفةوطرائق تلقيحها وتربيتها . .

* * *

كان الامبراطور مولعا بالصيد . ولذلك اعتنى بتدريب الصقور ثم اندفع الى دراسة طبائع هذه الطيور وغيرها من الحيوانات التي حشد أنواعا كثيرة منها في حدائق بلاطه . وقد جمع كثيرا من المؤلفات العلمية عن الحيوانات واضاف اليها كتابا من صناعته انتقل الينا وحده بين آثاره ، اعتمد في كتابته على كتاب في (البيزرة) باللغة العربية قام بترجمته الى اللاتينية (المعلم تئودور الانطاكي) وعني الامبراطور نفسه بمراجعته وتصحيح بعض اجزائه . وكان الملك الكامل قد أرسل الى الامبراطور، بطلب منه ، هذا العالم المنجم الذي لخص أيضا كتابا في (حفظ الصحة) ينسب الى (ارسطو) ،كماكان يقوم بتقطير الادوية والاشربة ويتولى المراسلات والبعثات الى الشرق .

وقبل ذلك كان (فريدريك الثاني) قد استدعى الى بلاطه عددا كبيرا من العلماء والمترجمين الذين يقومون بالبحوث والتجارب وفي مقدمتهم (ميخائيل ســــكوت)

الذي كان نقل الى اللاتينية كتاب الفلك للبطروجي وعهد اليه الامبراطور بترجمة شروح ابن رشد على مؤلفات ارسطو كلها . ويمكن القول ان (فريدريك الثاني) كان له فضل كبير في نشر فلسفة (ابن رشد) في البلاد الاوروبية لانه اعجب بنزعتها العقلانية ولانه كان في حاجة الى البراهين المنطقية والادلة العلمية في سبيل مكافحة تعاليم الكنيسة والرد عليها .

ولهذه الغاية أيضا انشأ في سنة ١٢٢٤ جامعة (نابولي) التي تعد من أهم مآثره اذ انها أسست بمرسوم امبراطوري دون ان تخضع للسلطة الكنائسية . كذلك قام الامبراطور بتوسيع مدرستي الطب في (سالرنو) و (بادوا) وجعلهما جامعتين كاملتين وجاء اليهما باساتذة من عرب صقلية .

وقد زود (فريدريك الثاني) مكتبة جامعة (نابولي) بمجموعةكبيرة من المخطوطات العربية واوعز بان تعتمد الدراسة على مؤلفات ارسطو وابن رشد التي كان أمر بترجمتها كما طلب ارسال نسخ من الكتب المترجمة الى جامعتي (بولونيا) و(باريس).

واليه يرجع الفضل في نشر الارقام العربية وتقرير تدريس الجبر على الطلاب المسيحيين في اوروبا ...

الى جانب العلماء والفلاسفة في بلاط (فريدريك الثاني) كان هناك أيضا جمع من الشعراء يقصدونه من مختلف الاقطار وبالاخص من مقاطعة (البروفانس) جنوبي فرنسا حيث كان المغنون المنشدون (التروبادور) قد تأثروا بالشعر العربي في الاندلس مثلما تاثر به الشعراء الصقليون .

وكان الامبراطور يعرف بالتأكيد بعض الاشعار الشعبية في صقاية ، كما كان هو نفسه وابنه (مانفرد) ينظمان الشعر باللهجة الطليانية ، وهذا شاعر ايطاليا الاكبر (دانتي) قد اثنى على شعرهما واعتبرهما من رواد الشعر الطلياني .

ان هناك فرضيات عديدة ونظريات متناقضة حول تأثير الادب العربي الاندلسي والصقلي في نشأة الاداب الاوروبية في عهد الاحياء وحول نصيب (فريدريك الثاني) وحاشيته في صقلية من هذا التاثير .والامر المؤكد الوحيد هو وجود علاقة بين التراث العربي ـ الاسلامي في الاندلس وصقلية على عهد النورمان ثم عهد (فريدريك الثاني) وبين النهضة الاوربية الحديثة .

كان اهتمام (فريدريك الثاني) متجها في الدرجة الاولى الى الامور العلمية ـ

الفنية والمسائل التطبيقية قبل التصورات الخيالية والتأملات الفلسفية والابحاث العلمية ــ النظرية البحتة .

وقد تمركزت عناية الامبراطور حول العلوم الطبيعية من حيوان ونبات ومن بيطرة وطب وفلك وتنجيم ثم كيمياء وميكانيك . وهو لايختلف في ذلك عن معاصريه الذين كانت تستهويهم هذه العلوم والفنون فاندفع الى اقتباسها من العرب المسلمين الذين كانوا قد نقلوها عن اليونان القدماء واستطاعوا تطويرها واغناءها بما قاموا به من بحوث وتجارب وما توصلوا اليه من اكتشافات واختراعات .

كذلك قام (فريدريك الثاني) بتنظيم الحياة الاقتصادية في بلاده متبعا الاساليب التي كان النورمان اقتبسوها في صقلية عن العرب المسلمين سواء فيما يتعلق بمصانع الطراز أو اصول المحاسبات المالية أو نظام النقد . وقد انتقلت هذه المالية الى التجار اللومبارديين ومنهم الى جميع المدن التجارية الاوروبية والدوائر الحكومية في بلاد الغــرب .

ومن المفيد ان نذكر هنا اقدام (فريدريك الثاني) على اصلاح نظام النقد . فقد لاحظ خلال اقامته في البلاد المقدسة فائدة وجود عملة ذهبية ثابتة القيمة . وكانت النقود الذهبية لم يبق لها أثر في البلاد الاوروبية بعد غارات البرابرة اذ اصبحت كل العملات الأوروبية ــ الغربية منذ القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر اما من الفضة أو معادن دونها قيمة . لذلك كانت النقود الذهبية البزنطية التي تسمى في الغرب (بيزانتس) تتمتع بمكانة عالية في العالم المسيحي .

وقد قام (فريدريك الثاني) بعد عودته من القدس بسك نقود ذهبية اطلق عليها اسم (اوغوستاليس) لتنافس نقود الامبراطور الروماني (اوغسطس)المشهورة. وعلى الرغم من طابع التقليد البادي عليها فانها كانت متقنة السبك ، جميلة المنظر ، خالية من كل شعار ديني خلافا للمعتاد اذ ذاك ، مقتصرة على النسر الروماني يحيط باسم (فريدريكوس) على أحد الوجهين وكلمات : روما وقيصر واوغوست والامبراطور على الوجه الاخر . كان (فريدريك الثاني) يقصد بذلك اضفاء مظاهر الروعة والهيبة والقدسية على شخصه اسوة بالاباطرة الرومان والاستغناء عن وصاية الكنيسة وبركتها.

ويظهر حرصه على الاقتداء بالاباطرة القدماء في اطلاقه اسم (الكتاب الاوغوسطي) على مجموعة القوانين التي اصدرها في سنة ١٢٣١ . وتعتبر هذه المجموعة من اكمل الانظمة الحقوقية وقد بنيت على أساس علمي لاول مرة منذ قوانين (جوستينيان) ،

كما جعلت البلاد خاضعة لتشريع موحد وسلطة واحدة مطلقة . كانت هذه القوانين رجعية من بعض الوجوه لانها اقرت الفروق الطبقية الاقطاعية وحافظت على جميع حقوق السادة على الاقنان ، الا انها كانت تقدمية من وجوه كثيرة اذ جردت النبلاء من السلطات التشريعية والقضائية ومن حق سك النقود وادخلت اصلاحات عديدة على اصول المحاكمات ، فمنعت اساليب التعذيب كما شملت تنظيم مهنة الطب والعمليات الجراحية وبيع الادوية . وكان (فريدريك الثاني) يشجع على تشريح الجثث ، رغم معارضة الرأي العام .



يتبين من القوانين والمراسيم التي اصدرها (فريدريك الثاني) ومن الانظمة الادارية التي اتبعها انه كان حريصا كل الحرص على فرض سلطته الامبراطورية ، متمسكا بالحكم الفردي الاستبدادي المطلق ، القائم على مبدأ المركزية التامة . فلم يكن يسمح بالاعتداء على مصلحة الدولة او بالتحدي لاوامره ولا يتأخر عن معاقبة الخارجين على النظام بكل شدة .

وقد ابدى بعض الباحثين دهشتهم تجاه التدابير القاسية جدا التي لجأ اليها الامبراطور لمكافحة الهرطقة وهو الذي اشتهر بالتفكير الحر والتسامح الديني . ولكن الامر هنا يتعلق بسلامة المجتمع ومصلحة الدولة فلم يكن هناك مجال للتساهل ..

كذلك تعرض (فريدريك الثاني) الى انتقادات لاذعة بسبب قسوته تجاه بقايا المسلمين في صقلية الذين قاموا بالثورة دفاعا عن حقوقهم واراضيهم في سنتي ١٢٢٢ — ١٢٢٣ ثم السنوات ١٢٤٣ — ١٢٤٦ ، وذلك لما عرف عنه من ميله الى المسلمين وعلاقاته الطيبة بملوك المسلمين . ويروي مؤلف (التاريخ المنصوري) ان احد المسلمين الذين هربوا من صقلية وصل الى (حران) وقابل الملك الكامل وطلب منه الكتابة الى الامبراطور في هذا الشأن .

ان (فريدريك الثاني) لم يكن ليستطيع التساهل مع العصاة ومثيري الفتنة ولكنه اضطر الى تهجير هؤلاء المسلمين الثائرين من (صقلية) الى جنوبي ايطاليا فأسكنهم في مدينة (لوجيرا) واعتنى بأمرهم وألف منهم حرسه الخاص الذي حارب به (البابا) .

يذكر المؤرخون ان وفدا اسلاميا زار (فريدريك الثاني) في سنة ١٢٣٢ في اثناء اجتماع (المجلس التمثيلي) للامراء والاساقفة الالمان فاسرع الامبراطور الى الترحيب

والاحتفاء بهؤلاء العرب المسلمين الذين كانوا يحتفلون بأحد اعيادهم ، ثم انضم اليهم وشاركهم في الاحتفال على مرأى من الجميع .

ويروي (ابو الفداء) نقلا عن قاضي حماة (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل) انه سافر في سنة ١٢٦٠ الى «الارض الطويلة» أي ايطاليا كما كان يسميها الجغرافيون العرب اذ ذاك ، موفدا من قبل الملك (الظاهر بيبرس) الى الامبراطور (مانفرد) ابن (فريدريك الثاني)و ان (مانفرد) كان من بين ملوك الفرنج مصافيا للمسلمين ويحب العلوم . ثم يقول (ابن واصل) : « فلما وصلت الى الامبراطور اكرمني واقمت عنده في مدينة من مدن (انبولية)واجتمعت به مرارا ووجدته متميزا ومحبا للعلوم العقلية . وقد صنفت له (الرسالة الانبرورية) في المنطق .. وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تسمى (لوجيرا)اهلهاكلهم مسلمون من اهل جزيرة صقلية ، يقام فيها الجمعة ويعلن بشعائر الاسلام .. » ويضيف (ابن واصل) قائلا : ان الامبراطور (مانفرد) قد حارب البابا برومية الذي كان حرمه من الغفران كما كان حرم والده (فريدريك) واخاه (كونراد) وذلك لميلهم الى المسلمين .



يقول المؤرخ السويسري (يعقوب بوركهاردت) في كتابه المشهور (حضارة عهد الاحياء في ايطاليا) : « ان (فريدريك الثاني) ، تلميذ العرب ، كان اول انسان أوروبي حديث » .

وقد عارض بعضهم هذا الراي وذهب الى ان فيه شيئا من المبالغة ، مدعيا ان (فريدريك الثاني) كان قبل كل شيء ابن القرون الوسطى وظل متمسكا بنظام الاقطاع وعبودية الاقنان وفكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ولكن لاشك ايضا في انه كان يمتاز على معاصريه وقد سبقهم بكثر من الافكار والمبادىء الجديدة التي لم تبرز الا بعد قرنين من عهد الاحياء . والسبب في اختلاف النظرة اليه يرجع الى شخصيته المعقدة ذات الجوانب المتعددة والمظاهر المتقلبة . وانه من الصعب حصر هذه الشخصية في قالب محدد او حشرها ضمن نوع معين من النماذج البشرية . ولفهم هذه الشخصية الفذة ، الفريبة، ومعرفة صفاتها الخاصة لابد من التذكير بان (فريدريك الثاني) عاش يتيما في طفولته ، محروما من حنان الوالدين ، مهملا ، مشردا ، مضطربا ، تعلم في سن مبكرة جدا أن لايثق بأحد وأن لايعتمد الا على نفسه وأن يقابل الناس بالريبة والحذر وأن يلجأ الى المراوغة والمكر

والخداع ، فاعتاد على قساوة القلب وصار « واقعيا » لا يهتم الا بتحقيق اهدافه بكل الوسائل .

لقد كان مثقفا ، متنورا من الوجهة الفكرية ولكنه كان في الوقت نفسه رجعيا ، متخلفا من الوجهة السياسية .. كان أحيانا متعصبا عندما تتطلب مصلحته ذلك ولكنه كان في اكثر الاحيان متسامحا ، متحررا من الخرافات ، كان يظهر عليه في بعض الاوقات الخشونةوالصلابة والعنف ، الا انه يبدو في أوقات أخرى مرحا ، لطيفا ، شهما ،انه كثيرا ماكان يتحمس ويندفع ويتهور ، ولكنه سرعان مايستعيد رباطة جائشه واتزانه ويسيطر على الموقف .. لقد كان يعرف معرفة دقيقة طبائع البشر وعواطفهم وأهواءهم ، فاكتسب بذلك مرونة ومهارة في التعامل مع الناس .

لا غرابة في أن يجمع(فريدريك الثاني) المتناقضات في شخصه وهو الذي ورث طبائع اجداده الجرمان والنورمان وتلقن تعاليم القرون الوسطى وتقاليد الرومان والبزنطيين وتأثر بالحضارة العربية ــ الاسلامية وبالحكمة اليونانية القديمة . وقد انعكس هذا التراث الضخم في بلاطه الذي امتاز بالنشاط الفكري والبحث العلمي .

اننا بعد تحليل شخصية (فريدريك الثاني) والكشف عن العناصر المختلفة التي تمازجت فيها لابد لنا من الاعتراف بأنه حقا نسيج وحده وانه يستحق وصف (اول اوروبي حديث) لانه كان مجددا ، مبتكرا ، رائدا . فقد تحرر من الافكار السابقة ، المتوارثة ومن تقاليد القرون المظلمة واصطدم بالبابوات فحاربهم ، ونشر فضائحهم ومهد بذلك السبيل لتحرير الدولة من سيطرة الكنيسة وتعاليمها . وأهم صفة امتاز بها هي اتجاهه العقلاني ونزعته العلمية . فقد كان يحب الاطلاع ودراسة كل العلوم والفنون وكان اهتمامه منصرفا في الدرجة الاولى الى العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية .واليه يرجع الفضل في تشجيع طرائق البحث الاستقرائية والتجريبية .

وهكذا نستطيع القول انالحضارة العربية ــ الاسلامية التي ازدهرت في صقلية في عهد الامراء الكلبيين قد استمر تأثيرها في ملوك النورمان وفي عهد الامبراطور (فريدريك الثاني) الذي اقتبس عنها الكثير من المظاهر المادية ــ الخارجية والانظمة الادارية والاقتصادية ثم اعتنى قبل كل شيء بتراث العرب العلمي والفلسفي فنقل الى الاوروبيين مؤلفات (ابن رشد) وبذلك نشر التفكير الحر ومهد السبل الى عهد الاحياء . وقد قيل بحق انه لولا (فريدريك الثاني) لتأخرت النهضة الاوروبية الحديثة مدة قرن او قرنين ..

بعض مراجع البحث :

١ ــ د. احسان عباس ، العرب في صقلية . مصر ١٩٥٩

٢ ــ التاريخ المنصوري ، تاليف ابي الفضائل محمد بن علي الحموي .
(نشرت اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي نسخة مصورة عنه سنة ١٩٦٣ ،
ويقوم مجمع اللغة العربية بدمشق بطبعه في الوقت الحاضر) .

٣ ــ ميشيل اماري ، المكتبة الصقلية . لايبزيغ ١٨٨٧

٤ ــ حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس ، القاهرة ١٩٦٧

٥ ــ ابن حوقل ، المسالك والممالك .

٦ ــ ابن جبير ، الرحلة .

٧ ــ الشريف الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق .

٨ ــ سبط بن الجوزي ، مراة الزمان ، طبعة الهند المجلد (٨)

٩ ــ Jacob Burkhardt, Die Kultur der Renaissance in Italien

١٠ــ E. Kantoroviez, Kaiser Friedrich der Jocite, Berlin 1981

(كتاب كانتوروفيج هذا ما زال احسن مصدر عن حياة فريدريك الثاني رغم
مرور خمسين عاما على تأليفه.. ترجم الى الانكليزية) .